حينَ ذَبُلَتْ شَجَرَةُ الرَّمان

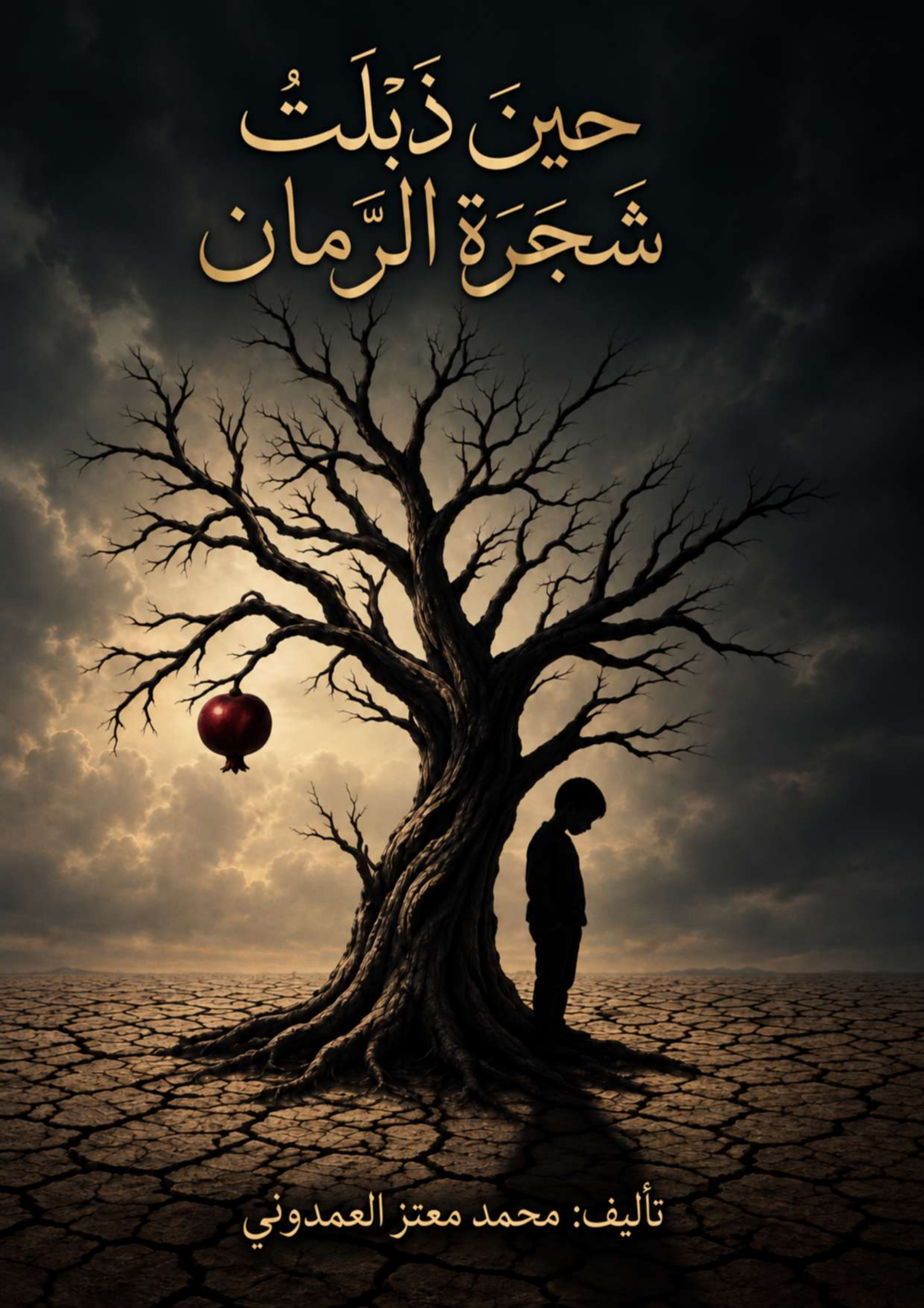

تأليف: محمد معتز العمدوني

ملاحظة

هذه القصة عمل من نسج الخيال. الشخصيات والأحداث والأسماء الواردة فيها لا تمثل أي شخص حقيقي أو واقعة بعينها، وأي تشابه مع الواقع محض صدفة
ُولدت هذه الفكرة كأي فكرة أخرى من ملاحظة عابرة، من سؤال ظل بلا إجابة،من لحظة تأمل في تفصيل صغير قد يمر أمام أي إنسان دون أن يلتفت إليه. ثم أخذت طريقها شيئًا فشيئًا لتتحول إلى حكاية مستقلة بذاتها، لها شخصياتها وعالمها الخاص

هذه ليست سيرة كاتبها، ولا محاولة لسرد تجربته الشخصية. هي فقط قصة أراد أن يرويها، وربما وجد فيها ما يشبه كل إنسان حمل يومًا سؤالًا لم يجرؤ على طرحه بصوت عالٍ

لن أعتذر هذه المرة عن الحقيقة، ولن لبسها ثوبًا أخف مما هي عليه. أهداء إلى

أبي، الذي ظن أن الحب يُقاس بالإنجاز، لم يكن أبًا بقدر ما كان قاضيًا يمنح الرضا لمن يستحقه في نظره وحده، وينسى أن الطفل ليس متهمًا يحتاج إلى إثبات براءته كل يوم

أمي، التي حسبت أن الصمت رقّة، لم تكن سوى امرأة اختارت أن تريح نفسها من عناء المشاعر فتركت ابنها يكبر يتيم الحضن وهي حيّة أمامه

سامي، الذي لم يخطئ يومًا في نظرهم، لم يكن بريئًا كما بدا؛ كان يعرف، وسكت، لأن الصمت كان يخدمه

ريم، التي أحببتها ولا أزال، لم تكن غير مذنبة هي الأخرى؛ فقد رأت الجرح ينزف سنوات ولم تصرخ إلا حين اقترب الدم منها هي. كلهم، كل بطريقته، اختار راحته على وجعي

وهذه ليست عائلة تُحاسب أفرادها... هذه أنانيّة ارتدت زيّ الحب، وعاشت بيننا سنوات طويلة، ولم يجرؤ أحد على تسميتها باسمها ولكن أشكركم لأنكم خلقت كأن مليء بالعقد نفسية

قصة:حين ذبلت شجرة الرمان

ليس كُل من سقط كان ضعيفًا أحيانًا يسقط لأنه حمل أكثر مما يحتمل قلبه وليس كُل من يُكره مذنبًا أحيانًا تكون جريمته الوحيدة أنه أحَّب أكثر مما ينبغي. يقال إن الدم لا يصبح ماء أبَّد لكنهم لم يخبرونا ماذا نفعل عندما يصبح الدم سُمًّا يتدفق في عروقنا، لا ليقتل الجسد، بل لينهك الروح لطالما كان البيت بالنسبة للجميع هو الملاذ الأخير بعد تعب الأيام، المكان الذي يخلع فيه الإنسان خوفه عند الباب، ويستريح بين وجوه يعرف أنها لن تخذله أما بالنسبة لي فكان الجبهة الأولى لحربٍ لم أختر خوضها يومًا. هناك، خلف تلك الأبواب المغلقة تعلمت مبكرًا كيف أعتذر عن أخطاء لم أرتكبها وكيف أبتسم بينما تتساقط داخلي أشياء لن تعود كما كانت. تعلمت أن بعض الكلمات لا تُنسى مهما مرّت السنوات. وأن بعض النظرات تستطيع أن تعيش في ذاكرة الإنسان أكثر من أصحابها كنت أظن أن البيوت تُبنى من الحجارة ثم اكتشفت أنها تُبنى من الطمأنينة وحين تغيب الطمأنينة يبقى البناء قائمًا لكن لا أحدًا يسميه وطنًا. في كل عائلة يوجد شخص يحمل الحب للجميع وشخص يحمل الجميع فوق كتفيه وشخص يبكي وحده كي لا يبكي الآخرون وفي عائلة الأحمدي كان آدم هو الثلاثة معًا لا أذكر متى بدأت الحكاية. ربما بدأت قبل ولادتي. أو ربما بدأت في اللحظة التي قارنني فيها أبي بأخي لأول مرة.وربما لم تبدأ أصلًا لأن بعض الحروب لا تملك تاريخًا واضحًا، وإنما تكبر مع الأيام حتى يظن أصحابها أنها جزء طبيعي من الحياة. اسمي آدم. أنا الابن الأصغر في عائلة الأحمدي. العائلة التي كان الجميع يراها مثالًا يُحتذى به بيتٌ واسع أبٌ ناجح. أم لا يعرف عنها الجيران إلا الطيبة. ابنٌ متفوق يرفع الرأس أينما ذهب. وابنة هادئة لا يسمع أحد صوتها. أما أنا فكنت الصورة التي لا يلاحظ أحد غيابها إذا سقطت من إطار العائلة. يقول أبي دائمًا: "قيمة الرجل فيما يحققه، لا فيما يشعر به."لم أفهم هذه الجملة وأنا طفل. لكنني حفظتها عن ظهر قلب، لأنني كنت أسمعها كلما عدت إليه بإنجاز صغير، فيبحث بعينيه عن نقصٍ يخبرني به قبل أن يخبرني بأنه فخور كنت أركض إليه حاملًا شهادة مدرسية، فيتصفحها سريعًا ثم يسأل: "وسامي. كم حصل؟" لم يكن السؤال يقصد سامي. كان يقصدني أنا. يقصد أن نجاحي لا يُقاس بما فعلته بل بما لم أصل إليه بعد. كنت أبتسم، وأخفض رأسي، وأقول تفوق علي بدرجتين." فيهز رأسه قائلًا "تعلم منه. ثم تنتهي المحادثة. أما أنا... فكنت أعود إلى غرفتي وأقف أمام المرآة دقائق طويلة. لم أكن أنظر إلى وجهي. كنت أبحث عن الشيء الذي يجعلني دائمًا أقل أمي، فاطمة، لم تكن قاسية. بل كان برودها أشد إيلامًا من القسوة. القسوة على الأقل تترك فرصة للغضب. أما البرود... فيجعلك تشك في حقك بالشعور أصلًا كانت توقظ سامي بابتسامة. وتسأل ريم إن كانت تحتاج شيئًا. ثم تمر بجوار باب غرفتي، وتطرق طرقات خفيفة. "استيقظ." ثم تمضي كلمة واحدة. لا أكثر. كنت أقنع نفسي أن هذا يكفي. وأقول في داخلي: ربما هي متعبة ربما نسيت. ربما غدًا كان الغد يأتي... ويشبه الأمس تمامًا. تعلمت منذ الصغر أن أختلق الأعذار لمن أحب حتى عندما كانوا يؤلمونني. كنت أقول: أبي مرهق. أمي لديها مسؤوليات كثيرة سامي لا يقصد ريم خائفة وحدي... لم أجد أحدًا يختلق الأعذار لي. في زاوية حديقة المنزل كانت تقف شجرة رمان صغيرة. زرعتها يوم كنت في التاسعة كنت أسقيها كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة. وأجلس بجوارها كل مساء. لم أفهم لماذا أحببتها إلى هذا الحد. ربما لأنها كانت الشيء الوحيد الذي يكبر معي كلما ذبلت أوراقها اعتنيت بها أكثر وكلما أثمرت، شعرت بسعادة غريبة، كأنها تشكرني بطريقتها الخاصة. وذات مساء... وقفت أتأملها

طويلًا. ثم خطر في بالي سؤال لم أستطع طرده: هل يمكن لشجرة أن تموت... رغم أنها تُسقى كل يوم؟ ظل السؤال يلاحقني سنوات. ولم أكن أعلم... أنني في الحقيقة لم أكن أسأل عن الشجرة. كنت أسأل عن نفسي. يقول الناس إن الحب يجعل الإنسان قويًا لكن أحدًا لم يخبرني أن الحب من طرفٍ واحد قد يتحول إلى أثقل حملٍ يمكن لقلبٍ صغير أن يحمله. كنت أعود إلى البيت كل مساء وأنا أحمل لهم شيئًا مرة قطعة حلوى. ومرة وردة لأمي. ومرة قلمًا أعجب سامي في أحد المتاجر لم يكن ثمن الأشياء كبيرًا لكنني كنت أشتريها من مصروفي القليل، وأنا أتخيل الابتسامة التي سأراها على وجوههم. الغريب... أنني كنت أعود إلى غرفتي في كل مرة تقريبًا، والكيس فارغ... وقلبي أثقل مما كان قبل. بدأت أفهم أن الإنسان لا ينهار عندما يخسر. بل عندما يكتشف أن كل انتصاراته الصغيرة... لم تعنِ شيئًا في نظرة أقرب الناس إليه مرّت الأيام وصار للبيت فصولٌ لا يعرفها التقويم فصلٌ اسمه "سامي ينجح"، وفصلٌ اسمه "ريم تكبر بصمت"، وفصلٌ ثالث... لم يكن له اسم. كان هو فصلي أنا. في تلك السنة، دخلت المرحلة الثانوية. حقيبة جديدة، دفاتر جديدة، ووجهٌ قديمٌ يحاول أن يبدو جديدًا أمام المرآة كل صباح كنت أقف أمامها دقيقتين لا أكثر. أرتب شعري، أصلح ياقة قميصي... ثم أهمس لنفسي: "اليوم سيكون مختلفًا." لم يكن يومًا مختلفًا أبدًا لكن الهمسة نفسها كانت كافيةً لتدفعني نحو الباب. في المدرسة كنت شخصًا آخر. هناك، لم يكن أحد يقارنني بسامي. هناك، كان اسمي "آدم" فقط، لا "أخو المتفوق". اكتشفت ذلك الفرق مبكرا، وتعلّقت به كما يتعلّق الغريق بخشبة صرت أحبّ المدرسة أكثر من البيت. غريبٌ أن يفرح طفلٌ بجرس الصباح، وأن يحزن حين يُقرع جرس الانصراف. كان لي صديقٌ واحد، اسمه ياسين. لم أختره لأنه الأفضل. اخترته لأنه الوحيد الذي لم يسألني يومًا "لماذا أنت هادئ هكذا؟" كان فقط يجلس بجانبي، ويشاركني ساندويتشه ويتكلم عن أشياء لا علاقة لها بالعائلات أو الدرجات. كان صمته معي مريحًا... لا كصمت أمي. صمتٌ لا ينتظر مني شيئًا لأكونه سألته مرّة: "هل تظن أن البيوت تتشابه؟" ضحك وقال: "البيوت كلها فيها ضجيج يا آدم، فرق فقط في نوعه." لم أخبره أن بيتي لا يعرف الضجيج بيتي كان أخطر من ذلك. كان هادئًا بطريقة تشبه بحرًا ساكن السطح تعيش تحته تيارات لا يراها أحد. في تلك الفترة، بدأ أبي يصطحب سامي معه إلى اجتماعات عمله "يجب أن يتعلم الرجل من صغره" هكذا كان يقول. كنت أراقبهما من نافذة غرفتي وهما يغادران، أبي يضع يده على كتف أخي، وسامي يمشي بخطًى واثقة كأنه يرث العالم لم أشعر بالغيرة كما يظن المرء شعرت بشيء أعمق من الغيرة... شعرت أنني أراقب حياة كان يجب أن تكون لي أيضًا، لكنها مرّت من أمامي دون أن تلتفت ذات مرة، تجرأت وسألت أبي: "هل يمكن أن آتي معكم؟ نظر إليّ نظرة من يقيم شيئًا لا يستحق التقييم، وقال: "أنت لا تزال صغيرًا على هذه الأمور" كنت أكبر من سامي حين بدأ هو معه بعامٍ كامل. لكنني لم أقل ذلك. تعلمت أن بعض الحقائق لا تُقال، لأن قولها لا يغيّر شيئًا سوى أنه يوجعك مرتين: مرة حين تكتشفها، ومرة حين تراها تُرفض. ريم، أختي، كانت تكبر في صمتٍ يشبه صمتي لكن صمتها كان مختلفًا. كانت تخفي دفترًا صغيرًا تكتب فيه كل مساء، وتغلقه بمفتاح صغير لا يعرف أحد مكانه سواها. ذات يوم، وجدتها تبكي في الحديقة، بجانب شجرة الرمان التي زرعتها جلست بجانبها دون أن أسألها لماذا تبكي تعلمت من بيتنا أن السؤال أحيانًا يؤلم أكثر من الصمت. بعد دقائق قالت بصوتٍ خافت: "هل تشعر أنك غير موجود يا آدم؟ حتى وأنت هنا؟" نظرت إليها طويلًا. لم

أُجب لأن الإجابة كانت أكبر من أن تُقال بكلمة،.. وأصدق من أن تُخفى بصمت. مسحْت دموعها وقالت: "أحيانًا أظن أننا الاثنان فقط من نرى الحقيقة في هذا البيت والباقون يرون فقط ما يريدون رؤيته." كانت تلك أول مرة أشعر فيها أنني لستُ وحدي. في عيد ميلادي الخامس عشر، لم يتذكر أحد لم يكن ذلك جديدًا، لكنه في تلك السنة آلمني أكثر من المعتاد. ربما لأنني كنْت أكبر، وصار الأمل يزن أكثر مما يحتمل قلبي. جلستُ وحدي في غرفتي، أنظر إلى الهاتف، أنتظر رسالة لم تأتِ. سمعْت ضحكات من الصالة، أبي يمازح سامي حول امتحانٍ نجح فيه بتفوق. نزلْت درجات السلم بهدوء ووقفْت عند الباب لم يلاحظ أحد وجودي. عدْت إلى غرفتي، وفتحْت النافذة المطلة على الحديقة نظرْت إلى شجرة الرمان في الظلام، وقلْت لها: "أنِت تتذكرين على الأقل أنني أسقيك كل يوم." ثم ضحكْت من نفسي كنْت في الخامسة عشرة أتحدث إلى شجرة لأنها الكائن الوحيد الذي شعرْت أنه يراني. في المدرسة، بدأ المعلمون يلاحظون شيئًا في رسوماتي. كنْت أرسم على هوامش الدفاتر، أشكالًا وخطوطًا لا معنى واضحًا لها، لكنها كانت تحمل كل ما لم أقله. معلمة الفنون، الأستاذة سلمى استوقفتني يومًا بعد الحصة. قالت "رسمك يحمل حزنًا كبيرًا يا آدم. هل كل شيء بخير في البيت؟ ارتبكْت. لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل بهذه المباشرة. قلْت: "الأشجارُ لا تموْت حين تُسقى بلا حب... هي فقط تتعلّم كيف تُثمرِ لمن لا يستحق، وتنسى أن تُثمر لنفسها. أنا لستُ حزينًا يا أستاذة أنا فقط شجرةٌ تعبت من عدّ الثمار التي أعطتها، ولم تجد من يعدّ لها ولو ثمرةً واحدة قلْت الجملة بصوت هادئ، كأنني أخرجها من مكانٍ لا أعرف أنا نفسي أنه موجود بداخلي لم أرفع صوتي. لم تهتز يدي. قلتها كما تُقال حقيقة عاشت في الصمت طويلًا حتى نضجت. توقفت الأستاذة سلمى عن الكلام فجأة. رأيْت الدفتر الذي كانت تحمله يرتجف قليلًا بين يديها، كأن الجملة أثقل من أن تُحمل بيد واحدة اتسعت عيناها، لا كمن يتفاجأ من كلامٍ غريب... بل كمن يتعرّف، فجأة، على وجعٍ كان يقف أمامها طوال أشهر، متنكرًا في هيئة تلميذ هادئ لا يتكلم كثيرًا حاولت أن تقول شيئًا، ففتحت فمها، ثم أغلقته مرتين. كأن الكلمات التي تعرفها جيدًا، وتستخدمها كل يوم في تعليم الطلاب، خانتها في تلك اللحظة بالذات جلست على الكرسي المقابل ببطء، وكأن ركبتيها فقدتا قوتهما. ثم قالت، بصوت لم أسمعه منها من قبل، صوْت يشبه من يتكلم وهو يحاول ألا يبكي أمام تلميذه "آدم... منذ متى وأنت تحمل هذا الكلام؟" لم أجب مباشرة. فقط أطرقْت رأسي قليلًا، وقلْت: "منذ أن تعلمْت كيف أعدّ الثمار"صمتت طويلًا ثم مسحت بيدها زاوية عينها بسرعة، كأنها تخفي دمعة لا تريدها أن تُرى وقالت:"أنا آسفة لم أكن أعرف أن الصمت يمكن أن يكون بهذا الصوت العالي." في تلك اللحظة فهمْت شيئًا جديدًا: أن بعض الكلمات لا تحتاج إلى صراخ لتُحدث زلزالًا... يكفي أن تُقال بهدوء، في المكان الصحيح، لتهزّ شخصًا ظننَت أنه لن يتزعزع أبدًا مرّت الأسابيع الأولى بعد ذلك الحديث دون تغييرٍ يُذكر. مرّت الأيام بعد حديث الأستاذة سلمى كما تمرُّ الغيوم فوق بحرٍ لا يستطيع أن يبتلعها ولا أن يحتفظ بها. لم يتغير شيء في البيت. وكان هذا أكثر ما يخيفني. لطالما كنت أظن أن الأشياء العظيمة تبدأ بانفجار لكنني اكتشفت أن أكثر الكوارث هدوءًا... هي التي لا يشعر بها أحد. في تلك الفترة، بدأْت ألاحظ تفاصيل لم أكن أراها من قبل. أو ربما... كانت موجودة دائمًا، لكنني كنْت مشغولًا باختلاق الأعذار لها. صار أبي يناديني باسمي أقل يقول: "يا ولد." أو: "أنت." بينما كان ينادي سامي باسمه، كأن الاسم نفسه يحمل احترامًا لا أستحقه في البداية، أقنعْت نفسي

أن الأمر لا يعني شيئًا. ثم بدأ ..... . في مساء كل يوم أفتح دفتري الصغير أرسم خطين متوازيين. أكتب فوق الأول سامي. وفوق الثاني: آدم ثم أضع إشارة كلما سمعت أبي يقول: "أحسنت يا سامي أو: "أنا فخور بك." وفي الجهة الأخرى... كنت أكتب كل مرة ناداني فيها باسمي في الأسبوع الأول امتلأت صفحة سامي. أما صفحتي... فبقيت بيضاء.ظللت أحدق فيها طويلًا ثم أغلقت الدفتر بسرعة شعرت أن الورقة تسخر مني منذ تلك الليلة بدأ سؤال واحد يطرق رأسي بلا رحمة. لماذا؟ لماذا يحبونه بهذا القدر؟ ولماذا أعجز أنا عن الوصول إلى المكان نفسه؟ في البداية كنت أسأل: "لماذا لا يحبونني؟" لكن السؤال تغيّر مع الوقت. صار أكثر قسوة ماذا ينقصني أنا؟ هناك فرق كبير بين السؤالين. الأول يتهم الآخرين. أما الثاني... فيبدأ بمحاكمة النفس وقفت أمام المرآة أكثر من المعتاد. كنت أتأمل وجهي كما يتأمل الرسام لوحة أخطأ فيها، ويحاول اكتشاف الخطأ. هل عيناي؟ هل صوتي؟ هل طريقتي في الكلام؟ هل ابتسامتي تبدو مزيفة؟ أدرت وجهي يمينًا. ثم يسارًا. ثم همست لنفسي: "لو كنت أشبه سامي أكثر... هل كانوا سيحبونني؟ ظل السؤال معلقًا في الهواء. ولم يجبني أحد. حتى المرآة. في أحد الأيام، عدت من المدرسة مبكرًا. كان البيت خاليًا إلا من أمي كانت تطوي الملابس في الصالة. دخلت بهدوء. اقتربت منها. جلست على الأرض بجانبها. لم أقل شيئًا كنت أنتظر أن تبدأ هي الحديث. مرت دقيقة. ثم أخرى. لم تقل شيئًا.كانت تطوي قميصًا لسامي بعناية تمرر يدها على القماش لتزيل تجعدًا صغيرًا. ثم تبتسم. لا إراديًا. راقبت المشهد كله. كنت أتمنى أن ألمح تلك الابتسامة ولو مرّة واحدة وأنا أنظر إليها. مددت يدي نحو أحد القمصان. قلت: "أساعدك؟" أجابت دون أن تنظر إلي "لا داعي." كلمتان فقط. لكنهما كانتا كافيتين لتجعلا المكان يضيق حولي وقفت. عدت إلى غرفتي وأغلقت الباب بهدوء. جلست على الأرض وأسندت ظهري إليه. لا أعرف لماذا... لكنني شعرت أنني أنا الذي ُرفض، لا مساعدتي. في تلك الليلة لم أنم. كان القمر يدخل من النافذة، ويقسم الغرفة إلى نصفين. نصف مضيء ونصف غارق في الظلام حدقت فيه طويلًا ثم فكرت: ربما لا يوجد إنسان سيئ بالكامل... ولا إنسان طيب بالكامل. حتى الليل... لا يستطيع أن يبتلع الضوء كله. لكن ماذا لو ُوجد إنسان لم يحصل على نصيبه من الضوء أصلًا؟ في صباح اليوم التالي، خرجت إلى الحديقة كعادتي. توجهت نحو شجرة الرمان. لكن شيئًا ما أوقفني. كانت ورقة صفراء تستقر عند جذعها التقطتها. قلبتها بين أصابعي. ابتسمت. "بدأ الخريف مبكرا." رميتها جانبًا وسقيت الشجرة كعادتي لكنني، للمرة الأولى... لم أشعر أنها عطشى. شعرت أنها متعبة. تمامًا مثلي في الأيام التالية، بدأت أوراق أخرى تتساقط. ورقة. ثم اثنتان. ثم غصّن صغير جفّ دون سبب واضح أحضرت سمادًا جديدًا غيّرت مكان الأصيص الحجري حولها. صرت أسقيها أكثر.أعتني بها أكثر. أتحدث إليها أكثر. لكنها كانت تذبل أكثر. وقفت أمامها عصرًا، والشمس تلقي بظلها الطويل على الحديقة. وضعت كفي على جذعها الخشن وقلت بصوت بالكاد سمعته أنا "قل لي هل المشكلة في الماء... أم في الأرض التي لم تعد تعرف كيف تحتفظ بالحياة؟" لم تكن الشجرة هي المقصودة. ولم أكن أنا أيضًا أجهل ذلك. في تلك المرحلة لم أشك يومًا في حبهم. بل... لأول مرة في حياتي... شككت في نفسي. ربما كنت أقل مما أظن ربما كنت الشخص الذي يرونه فعلًا. وربما... كان الإنسان لا يحتاج إلى أن يسمع كلمة "أنت فاشل" كل يوم. يكفي أن يعيش طويلًا دون أن يسمع يومًا واحدًا "أنت كإف. لم أعد أكتب كثيرًا في دفتري. ليس لأن الأفكار انتهت... بل لأنني بدأت أخاف منها. كانت

الكلمات تشبه المرايا و كلما كتبت سطرًا، رأيت شيئًا في نفسي لم أكن مستعدًا لرؤيته هل يمكن للإنسان أن يعيش عمرًا كاملًا وهو يخطئ في تعريف نفسه؟ ظل هذا السؤال يلاحقني أيامًا. كنت أظن أن الإنسان يعرف نفسه أكثر من أي شخص آخر. لكن... ماذا لو كانت صورتنا عن أنفسنا تصنع بأيدي الآخرين؟ إذا قيل لطفل،كل يوم، إنه عديم القيمة... فهل سيكبر وهو يعرف قيمته؟ أم سيقضي حياته كلها يحاول إثبات أنهم كانوا مخطئين؟ وهل إثبات الذات للآخرين حياة... أم عقوبة؟ في تلك الأيام، أصبحتُ أراقب الناس أكثر مما أتكلم معهم. كنت أجلس في ساحة المدرسة، وأتأمل الوجوه. ضحكاتهم. خصوماتهم الصغيرة صراخهم ثم أتساءل: هل يعرف هؤلاء النعمة التي يعيشونها؟ هل يدركون أن هناك من يحسدهم على عناقٍ سريع من أم، أو تربيتة يد من أب؟ كم يبدو الإنسان غنيًا حين يملك أشياء يظنها عادية قال الأستاذ يومًا في الحصة: "اكتبوا تعريفًا للبيت." أمسك الجميع أقلامهم بدأت الأصوات تملأ الصف. أما أنا فبقيت أحدق في الورقة البيضاء. مرت خمس دقائق. ثم عشر. لم أكتب شيئًا لأنني لم أكن أعرف هل أكتب التعريف الذي تقوله الكتب؟ أم التعريف الذي عشته؟ هل البيت هو المكان الذي يحميك... أم المكان الذي تحتاج أن تتعافى منه؟ رفعت رأسي نظرت من النافذة. كانت شجرة المدرسة تميل مع الريح، لكنها لا تنكسر فكرت... ربما لأنها تجد أرضًا تتمسك بها. أما الإنسان فعلى من يتكئ إذا كانت الأرض نفسها ترفضه؟ عدت إلى المنزل ذلك اليوم قبل الجميع توجهت مباشرة نحو الحديقة. كانت شجرة الرمان تنتظرني كعادتها لكنها لم تعد كما كانت عدة أوراق صفراء كانت متناثرة حولها. غصن صغير فقد لونه الأخضر. اقتربت منها. جلست على التراب. أسندت ظهري إلى الجدار وقلت لها: "هل تعبتِ أنت أيضًا؟" ابتسمت بسخرية من نفسي. كنت أتحدث إلى شجرة. لكنني بطريقة غريبة، كنت أشعر أنها أكثر إنصاتًا من البشر وضعت كفي على جذعها. كان خشنًا باردًا وصامتًا.تمامًا كقلبي في المساء، اجتمعت العائلة حول مائدة الطعام. كان الحديث كله يدور حول سامي.مشروعه الجديد. إنجازه. المستقبل الذي ينتظره كنت أستمع. ليس لأنني مهتم. بل لأنني تعبت من محاولة إدخال نفسي في أحاديث لا يريدني أحد فيها. سألت أمي سامي: "هل أعدّ لك الحلوى التي تحبها غدًا؟ ابتسم. "إذا لم تتعبي." ضحكت. "أتعب من أجلك؟ مستحيل." أنزلت رأسي إلى طبقي لم أرفع الملعقة. لم أشعر بالجوع. كنت أفكر فقط... هل قالت لي أمي هذه الجملة يومًا؟ حاولت أن أتذكر فتشت في ذاكرتي كلها. طفولتي. أيام المدرسة. الأعياد. المرض لم أجد. والغريب... أن الذي كسرني لم يكن أنها لم تقلها. بل أنني لم أستطع تذكر مرة واحدة قالت فيها شيئًا يشبهها. لاحظت ريم أن طبقي كما هو همست: "لن تأكل؟" ابتسمت. تلك الابتسامة التي بدأت تظهر على وجهي كثيرًا ابتسامة لا تقول شيئًا ولا تخفي شيئًا. قلت: "لست جائعًا." لم تسأل مرة أخرى. وربما كانت تعرف أن الجوع الذي أقصده لا علاقة له بالطعام. في تلك الليلة... وقفت أمام المرآة أكثر من ساعة. لا أنظر إلى وجهي. بل إلى عيني العينان لا تعرفان الكذب. حتى عندما يتقن الإنسان تمثيل السعادة... تفضحه عيناه. اقتربت من المرآة. إلى درجة أن أنفاسي غطت الزجاج ثم سألت الرجل الذي يقف أمامي: "قل لي من الذي تكرهه حقًا؟ هم أم أنت؟ ساد الصمت. ولأول مرة... خفت من الجواب. أصبحت أنام متأخرًا. لا لأنني أحب السهر بل لأن النوم أصبح مكانًا غريبًا. كلما أغمضت عيني... عاد اليوم كله الكلمات نفسها.النظرات نفسها الخيبات نفسها. فأفتح عيني من جديد. وأقول لنفسي: "ليس الآن. ثم تمر ساعة وساعتان. ويطلع الفجر

قبل أن يزورني النعاس. بدأ شيء داخلي يتغير. في السابق كنت أحزن إذا تجاهلني أبي. أما الآن... صرت أنتظر التجاهل. كأن الإنسان يستطيع أن يعتاد حتى على الألم وهل هذه نعمة أم بداية النهاية؟ لا أعرف. لكنني بدأت أخاف من سؤال آخر: إذا توقف الألم عن إيذائي فهل هذا يعني أنني شفيت؟ أم أن جزءًا مني مات؟ كان الناس يظنون أن الانهيار يشبه الزلزال صوتًا عاليًا وسقوطًا مفاجئًا. لكنهم كانوا مخطئين الانهيار الحقيقي يشبه ورقة شجرة. لا يسمع أحد صوتها وهي تسقط.ومع ذلك تكون الشجرة قد خسرت جزءًا من حياتها وأنا... كنت أفقد أوراقي واحدةً تلو الأخرى دون أن يلاحظ أحد منذ ذلك اليوم بدأت أخاف من الليل ليس لأن الظلام مخيف... بل لأن الليل لا يترك للإنسان مكانًا يهرب إليه من نفسه. في النهار، يستطيع المرء أن يختبئ خلف الضجيج. خلف الدراسة.خلف الناس خلف الابتسامات. أما الليل فهو قاضٍ لا يؤجل جلساته. يجلس أمامك ويطلب منك أن تنظر إلى روحك دون شهود. استلقيت على سريري كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. أدرت رأسي نحو شجرة الرمان التي تظهر من النافذة. كانت الريح تحرك أغصانها ببطء. بدت كأنها تحاول أن تقول شيئًا.وسألت نفسي هل تتألم الأشجار عندما تجف؟ أم أن الألم خُلق للبشر وحدهم؟ وهل الذبول شعور... أم مجرد نتيجة؟ ولو استطاعت الأشجار الكلام هل كانت ستشكو من قلة الماء أم من قلة من جلس تحت ظلها؟ أغمضت عيني. لكن سؤالًا آخر سبق النوم. لماذا يحتاج الإنسان إلى أن يحبه أحد؟ أليس قادرًا على أن يحب نفسه؟ إذا كان الأمر كذلك... فلماذا تكفي كلمة واحدة من شخص نحبه لتبني داخلنا مدينةً كاملة وتكفي كلمة أخرى منه لتهدمها؟ هل نحن ضعفاء؟أم أن الله خلق قلوبنا لتعيش بالود كما تعيش الرئتان بالهواء؟ نهضت من السرير وقفت أمام المرآة. صرت أفعل ذلك كل ليلة. كأنني أزور شخصًا لا أعرفه تأملت وجهي طويلًا. ثم قلت: "لو ولدتُ من جديد هل سأختار أن أكون أنا؟ ساد الصمت لم أعرف الإجابة. وخفت منها. لأن الإنسان حين يتمنى أن يكون شخصًا آخر فهو لا يكره حياته فقط. بل يبدأ في فقدان السلام مع نفسه في اليوم التالي... جلست مع ياسين في ساحة المدرسة كان يأكل قطعة خبز ناولني نصفها. رفضت نظر إليّ باستغراب. "لم تعد تأكل كثيرًا." ابتسمت. "لست جائعًا." ضحك أن الإنسان عندما يحزن، ينسى حتى أنه يحتاج إلى الطعام توقفت يدي.حدقت فيه سألته: "برأيك ما الذي يجوع أولًا؟ الجسد... أم القلب؟" ابتسم ابتسامة صغيرة. وقال الجسد يطلب الطعام عندما يجوع. أما القلب فلا يطلب شيئًا.يصمت فقط." بقيت أفكر في كلامه طوال الطريق لماذا يصمت القلب عندما يتألم؟ لماذا لا يصرخ؟ لماذا لا يتوقف فجأة عن النبض احتجاجًا؟ ولماذا يستطيع الإنسان أن يصف جرحًا في يده بسهولة لكنه يعجز عن وصف كسرٍ في روحه؟ ربما لأن الجروح التي يراها الناس تُشفى أسرع من الجروح التي يضطر صاحبها لإخفائها. في المساء وجدت ورقة جديدة تحت شجرة الرمان. ثم ثانية ثم ثالثة. جمعتها في كفي. كانت خفيفة جدًا لكنني شعرت أنها أثقل من الحجارة وسألت نفسي هل تموت الأشياء لأنها ضعيفة؟ أم لأنها تعبت من المقاومة؟ وهل القوة هي ألا نسقط... أم أن نستمر في الوقوف رغم أننا ننهار من الداخل؟ بدأت ألاحظ شيئًا مخيفًا لم أعد أنتظر من أبي أن يمدحني. ولم أعد أحاول أن ألفت انتباه أمي. كان شيء داخلي يتخلى عن أحلامه الصغيرة واحدًا تلو الآخر. هل هذه راحة؟ أم استسلام؟ ما الفرق أصلًا بين الإنسان الذي اقتنع... والإنسان الذي تعب من المحاولة؟ أحيانًا... يبدوان متشابهين جدًا. لكن أحدهما وجد الحقيقة والآخر فقد الأمل تلك

الليلة... كتبت في دفتري جملة واحدة فقط: "أخطر أنواع الموت... أن يستمر قلبك في النبض، بينما تتوقف روحك عن انتظار الغد." ثم أغلقت الدفتر وأطفأت المصباح ولأول مرة... لم أتمنَّ أن يكون الغد مختلفًا. بعد أيامٍ من الصمت... لم أعد أعرف إن كنت أعيش الأيام أم أنها هي التي تعيشني. كنت أتحرك كما تتحرك الساعة القديمة في بيتنا. تعرف طريقها لكنها لا تعرف لماذا تستمر. في إحدى الاستراحات، جلس ياسين إلى جانبي تحت شجرة السرو الكبيرة في ساحة المدرسة لم نتحدث طويلًا كان بيننا ذلك النوع من الصمت الذي لا يحتاج إلى اعتذار وفجأة سمعته يقول: "أنت لست هنا ابتسمت ابتسامة شاحبة. "وأين أنا إذًا؟" هز كتفيه. "لا أعرف... لكن منذ مدة أشعر أن جسدك فقط هو الذي يأتي إلى المدرسة." ساد بيننا صمْت قصير ثم قلتُ وأنا أحدق في السماء: "ياسين... هل تعرف ما الذي أفكر فيه كل ليلة؟ التفت إليّ، وقد بدا عليه الاستغراب "ماذا؟"تنهدتُ ببطء، كأن السؤال كان أثقل من أن يخرج بسهولة "أفكر... متى يشعر الأب أن ابنه يستحق أن يخاف عليه؟ ومتى ترتجف يد الأم وهي تتخيل أن سرير ابنها قد يبقى فارغًا؟" ظل ياسين صامتًا للحظات، ثم قال بصوتٍ هادئ:"أظن... عندما يشعران أن فقده أصبح قريبًا." تسللت إلى وجهي ابتسامة صغيرة. لم تكن ابتسامة اقتناع بل ابتسامة شخصٍ سمع الجواب الذي كان يخشاه ظللتُ أحدق في الفراغ أمامي، ثم قلت: "غريب..." توقفت قليلًا، وكأنني أفتش بين الكلمات عن أقلها قسوة "لماذا يحتاج الحب إلى أن يرى الهاوية، حتى يعترف بوجود صاحبه؟ ساد الصمت. ولم أطلب منه جوابًا. كنت أعرف أن بعض الأسئلة لا تُقال لأنها تنتظر إجابة... بل لأنها تعبت من البقاء حبيسة الصدر. مرّت لحظات، ثم شعرتُ أن سؤالًا آخر يطرق رأسي بعنفٍ أكبر التفتُّ إليه، وقلت: "ياسين هل تعتقد أن الإنسان يُولد وهو يستحق الحب؟ قطب حاجبيه. "بالتأكيد." ابتسمتُ ابتسامة باهتة "إذًا...لماذا يقضي بعضنا عمره كله يحاول أن يثبت أنه يستحق شيئًا وُلد وهو حقٌّ له؟" خفضتُ رأسي "لماذا أشعر أنني في كل يومٍ أعيش امتحانًا جديدًا والجائزة فيه ليست النجاح، بل أن ينظر إليّ أبي نظرة رضا؟" تنهدتُ ببطء "تعبتُ يا ياسين تعبتُ من محاولة أن أكون كافيًا." نظر إليّ ياسين طويلًا. كانت تلك أول مرة لا يحاول فيها أن يخفف عني بكلماتٍ جاهزة. قال بهدوء: "يا آدم... ليست كل المعارك تُخاض لتربح رفعتُ رأسي إليه فأكمل: "بعض المعارك نخوضها فقط لأننا نحب الذين نقاتل من أجلهم." ابتسمتُ بحزن. "لكن...ماذا لو كان الطرف الآخر لا يعلم أصلًا أن هناك معركة؟ صمت. لأن السؤال كان أكبر من قدرتنا نحن الاثنين وقفتُ ببطء، وحملتُ حقيبتي. وقبل أن نغادر، قلتُ وأنا أحدق في الأشجار التي تحيط بساحة المدرسة: "أتعرف ما الذي اكتشفته مؤخرًا؟ نظر إليّ منتظرًا قلت "الإنسان لا ينهار حين يسمع كلمةً قاسية... ولا حين يُهزم... ولا حتى حين يبكي الانهيار يبدأ في اللحظة التي يتوقف فيها عن سؤال نفسه:هل سيحبونني يومًا؟ لأنه يكون قد عرف الجواب. وأخطر أنواع الأجوبة... هي تلك التي تأتي بلا كلمات .مشينا معًا نحو بوابة المدرسة. لكنني كنت أشعر... أن شيئًا ما في داخلي بقي جالسًا هناك،تحت تلك الشجرة. كأن جزءًا مني... قرر ألا يعود خرجتُ من المدرسة ذلك اليوم دون أن أودّع ياسين. لم أنتظر الحافلة. ولم أشعر بطول الطريق. كانت قدماي تعرفان إلى أين تذهبان، بينما كان رأسي يدور في دائرةٍ لا نهاية لها. كل سؤالٍ أنجب سؤالًا آخر وكل جوابٍ فتح بابًا جديدًا للألم. هل يمكن للإنسان أن يتعب من التفكير كما يتعب من الركض؟ وهل العقل يمرض... أم أن القلب، عندما يثقل، يبدأ بإغراق كل شيء حوله؟ وصلتُ إلى البيت كان

الباب مفتوحًا. دخلت بصمت. لم يلتفت أحد. أبي يتابع نشرة الأخبار. أمي في المطبخ سامي يتحدث في الهاتف. وريم لم تكن قد عادت بعد. وقفت لحظة في منتصف الصالة حدقت في وجوههم واحدًا واحدًا. ثم خطرت لي فكرة أخافتني لو خرجت الآن... هل سينتبه أحد إلى أنني كنت هنا أصلًا؟ تراجعت بهدوء وأغلقت الباب خلفي كما دخلت. لم ينادني أحد حتى صوت الباب لم يكن مهمًا بما يكفي ليلتفت إليه أحد. كانت الحديقة ساكنة. جلست تحت شجرة الرمان التقطت ورقة صفراء سقطت لتوها بين يدي. قلبتها طويلًا كانت جميلة... رغم أنها مات فسألت نفسي: هل يفقد الشيء قيمته عندما يذبل... أم أن الناس فقط يتوقفون عن النظر إليه؟ رفعت بصري إلى الأغصان كل يوم كانت الشجرة تخسر ورقة. وكل يوم كنت أشعر أنني أخسر شيئًا لا أستطيع تسميته لم أعد أعرف إن كان الذي يذبل هو الشجرة... أم أنا أسندت رأسي إلى الجذع. أغمضت عيني. ولم أعد أقاوم الأفكار. تركتها تعبر داخلي كما تعبر الريح بين الأغصان اليابسة. هل يولد الإنسان وفي داخله مكان مخصص للحب؟ وإذا بقي ذلك المكان فارغا سنوات طويلة... هل يتحول إلى حفرة؟ أم إلى قبر؟ شعرت بثقل في صدري. كأن أحدا وضع حجرا فوق قلبي صار تنفسي بطيئا. وتداخلت الأصوات من حولي. لم أعد أميز بين حفيف الأوراق... وصوت أنفاسي. ثم اختفى كل شيء. "آدم!" كان الصوت بعيدا بعيدا جدا. ثم عاد مرة أخرى، أقرب "آدم...افتح عينيك." شعرت بيد تمسك كتفي برفق. فتحت عيني بصعوبة كانت ريم جاثية أمامي وجهها شاحب وعيناها ممتلئتان بالقلق. لأول مرة رأيت الخوف في عيني أختي. ولأول مرة تمنيت لو لم أكن السبب فيه .خلفها كانت تقف فتاة لم أعرفها. ملامحها هادئة لكن عينيها كانتا مضطربتين اقتربت بخطوات بطيئة، ثم جلست على العشب دون أن تقول شيئًا. لم تسألني ماذا حدث؟ ولم تقل: "تماسك."اكتفت بأن مدت زجاجة ماء نحوي وقالت بصوت خافت "اشرب... ثم نتكلم إذا أردت." رفعت رأسي إليهاكانت هذه أول مرة ألتقي فيها ليان. لم أعرف اسمها بعد. لكنني لاحظت شيئًا غريبًا كانت تنظر إلي... وكأنها ترى إنسانا. لا مشكلة. ولا عبئا. ولا مقارنة مجرد إنسان متعب. قالت ريم وهي تحاول أن تخفي ارتجاف صوتها: "هذه ليان... صديقتي." ابتسمت ليان ابتسامة خفيفة. ثم قالت "تشرفت بمعرفتك يا آدم." ظللت أنظر إليها بصمت. وسألت نفسي سؤالا لم يخطر لي من قبل: هل يمكن لنظرة واحدة صادقة... أن تعيد إلى الإنسان جزءا من إيمانه بنفسه؟ لم أعرف الجواب لكنني، للمرة الأولى منذ زمن طويل... لم أشعر أنني غير مرئي. ظللت ممسكا بزجاجة الماء دون أن أشرب. لم تكن يدي ترتجف لكن شيئًا في داخلي يرتجف منذ سنوات .جلست ليان على مسافة قصيرة مني. لا قريبة إلى الحد الذي يجعلني أشعر أنها تقتحم وحدتي. ولا بعيدة إلى الحد الذي يجعل حضورها بلا معنى. كانت تعرف،أو هكذا خيّل إلي، أن الأرواح المنهكة لا تحتاج إلى من يقترب منها كثيرًا... بل إلى من يمنحها مساحة آمنة قالت ريم وهي تحاول أن تبتسم: "أقلقتني يا آدم." رفعت بصري إليها. كان وجهها مختلفا لأول مرة لم أر أختي التي اعتادت الصمت رأيت فتاة خائفة. وسألت نفسي: كم مرة نخفي خوفنا حتى عن الذين نحبهم؟ وهل الصمت دائما دليل قسوة... أم أنه أحيانا عجز عن التعبير؟ كسرت ليان الصمت برفق. "تحب هذه الشجرة؟" نظرت إليها، ثم إلى شجرة الرمان ابتسمت ابتسامة باهتة. "أكثر مما ينبغي"ولماذا؟" تنهدت. "لأنها تشبهني." لم تضحك. لم تقل إن كلامي غريب بل التفتت نحو الأغصان اليابسة، وقالت: "أبي كان يقول إن أكثر الأشجار عطاء... هي التي تخفي تعبها أطول

وقت."بقيتُ أنظر إليها. كانت أول إنسانة لا تحاول أن ترد على ألمي بجملة محفوظة. كانت تتحدث وكأنها تعرف أن بعض االجروح لا تحتاج إلى علاٍج سريع، بل إلى من يجلس بجانبها حتى تتوقف عن النزيف. مددتُ يدي إلى أحد الأغصان الجافة. انكسر بسهولة. حدقت في القطعة الصغيرة بين أصابعي.ثم قلت "غريب... كنا نظنه قويًا لأنه ظل واقفًا. لكن يبدو أنه كان مكسورًا من الداخل منذ وقٍت طويل." قالت ليان بهدوء: "الأغصان لا تنكسر في اللحظة التي نسمع فيها صوتها .التفتُّ إليها.فأكملت: "هي تنكسر بصمت... ثم يأتي يوٌم لا تعود فيه قادرًة على حمل نفسها." شعرُت أن كلماتها لم تكن عن الغصن ولا عن الشجرة. كانت تتحدث عني... من دون أن تعرفني. نهضت ريم لترد على اتصاٍل هاتفي، وتركتنا وحدنا. ساد بيننا صمٌت طويل لكنه لم يكن الصمت الذي يخنقني في البيت.كان صمًتا يسمح للقلب أن يلتقط أنفاسه. قالت ليان وهي تنظر إلى الأفق: "هل تعرف ما الذي يخيفني؟" هززت رأسي "أن يعتاد الإنسان على ألمه." قطبُت حاجبي. "ولماذا؟" قالت: "لأن الألم عندما يصبح عادة يتوقف صاحبه عن البحث عن النجاة." بقيُت أحدق في كلماتها قبل أن أحدق فيها.ثم سألت نفسي: هل كنت أحاول النجاة فعًلا... أم كنت أحاول فقط أن أتحمل يوًما آخر؟هناك فرٌق كبير بين الأمرين. فالذي يبحث عن النجاة ما زال يؤمن أن الشاطئ موجود. أما الذي يكتفي بالتحمل فقد بدأ يقتنع أن الغرق هو الشكل الطبيعي للحياة.وقفُت ببطء. كانت ساقاي ما تزالان ثقيلتين. لكنني لم أشعر بالثقل نفسه الذي كان في صدري قبل دقائق. ليس لأنه اختفى... بل لأن أحًدا شاركني حمله،ولو بكلمة نظرُت إلى شجرة الرمان. تراقصت أوراقها مع نسمٍة خفيفة. وسألت نفسي سؤالًا جديًدا: هل يمكن أن تبدأ حياة الإنسان من لحظٍة شعر فيها، للمرة الأولى، أن أحًدا رآه كما هو؟ ربما ليست كل البدايات صاخبة. بعضها يبدأ بجملٍة هادئة ونظرٍة لا تحمل حكًما. وربما... كان هذا المساء هو أول مرة لا أشعر فيها أنني أقف وحدي تحت هذه الشجرة غادرنا الحديقة مع اقتراب الغروب. كانت ريم تسير أمامنا بخطوات سريعة، بينما بقيُت أنا وليان خلفها بمسافة قصيرة. لم يكن بيننا حديٌث طويل. ولم أشعر أن الصمت يطالب أحًدا منا بكسره. كانت ليان متوسطة القامة، تترك شعرها البني ينسدل على كتفيها دون كثير اهتمام، وكأنها لا ترى في المظاهر شيًئا يستحق الانشغال. لم يكن أكثر ما يلفت فيها ملامحها بل عيناها. كانتا تمتلكان ذلك الهدوء النادر الذي يجعل من ينظر إليهما يشعر بأنه ليس مضطًرا إلى الدفاع عن نفسه. وحين كانت تستمع كانت تستمع فعًلا لا تنتظر دورها في الكلام ولا تبحث عن رٍّد سريع. تترك الكلمات تأخذ وقتها، وكأنها تؤمن أن بعض الجمل تحتاج إلى مكاٍن تستقر فيه قبل أن ُتجاب. عند باب المنزل، التفتت إلّي وقالت بابتسامة هادئة: "أتمنى أن أراك بخير في المرة القادمة." أومأت برأسي فقط لم أعرف ماذا أقول. ثم رحلت مع ريم. وبقيُت واقًفا أحدق في الطريق الذي اختفتا فيه. لم يكن ذلك إعجابًا بل دهشة كم يبدو الإنسان مختلًفا حين يعاملك كإنسان،لا كمشكلة تحتاج إلى حل. مّرت الأيام. لم تتغير العائلة. لكن شيًئا صغيًرا تغير داخلي. لم أعد أنتظر منهم كلمًة جميلة كل صباح صرت أنتظرها في نهاية اليوم. ثم في نهاية الأسبوع. ثم توقفت عن الانتظار. دون أن أشعر. في المدرسة، أعلن المدير عن مسابقة أدبية على المستوى الجهوي كان المطلوب كتابة نص بعنوان: "الوطن الذي نبنيه." حين سمعت العنوان ضحكت بيني وبين نفسي. أي وطن؟ أنا الذي عجزُت عن بناء وطٍن صغير داخل بيتي كيف سأكتب عن وطٍن أكبر؟ ومع ذلك...كتبت. كتبت كما لم أكتب من قبل سكبت على الورق

كل ما لم أستطع قوله لأبي كل ما تمنيت أن تسمعه أمي. كل ما ابتلعته من صمت. بعد أسبوعين وقف المدير أمام الطلاب، وقال بصوتٍ يملؤه الفخر: "لدينا اليوم خبٌر جميل شعرُت بشيءٍ يتحرك في صدري. أكمل: "المركز الأول على المستوى الجهوي" توقفت أنفاسي. للطالب آدم الأحمدي ساد التصفيق. كان ياسين أول من نهض. ثم بقية الصف. أما أنا فبقيت جالسًا لا لأنني لم أفرح. بل لأنني كنت أفكر في شيءٍ واحد فقط. سيبتسم أبي أخيرًا حملت الشهادة بين يدي طوال الطريق إلى المنزل. لم أكن أمسكها خوفًا من أن تتجعد بل خوفًا من أن يتجعد الأمل الذي حملته معها. لأول مرة منذ سنوات، كنُت أسمح لنفسي أن أتخيل. تخيلت أبي يبتسم. وربما يربت على كتفي. وربما يقول تلك الجملة التي انتظرتها منذ طفولتي "أحسنت أنا فخور بك." كم هو غريب أن يقضي الإنسان عمره كله وهو ينتظر جملة واحدة. دخلُت المنزل بهدوء كان صوت أبي يأتي من غرفة الجلوس توقفُت قبل أن أدخل. لم أكن أقصد التنصت... لكنني سمعت اسمي.قالت أمي وهي ترتب فناجين القهوة:سامي اتصل، يبدو أن خبر ترقيته أصبح مؤكدا ضحك أبي ضحكة قصيرة. كنت أعلم أنه سيصل إلى هذا اليوم. ثم سكت لحظة. وأضاف بنبرة امتزج فيها الرضا بالفخر: "هذا هو الابن الذي يرفع رأس أبيه .ابتسمُت رغم ذلك. قلت في نفسي: اليوم ربما سيرفع رأسي أنا أيضا. دخلُت الغرفة. ابتسمُت بخجل، ومددُت الشهادة نحوه " أبي فزُت بالمركز الأول في المسابقة الأدبية على المستوى الجهوي .أخذها من يدي. قرأ السطر الأول. ثم الثاني. ثم أغلقها و وضعها على الطاولة. جيد. كانت الكلمة قصيرة... قصيرة إلى درجة أنها لم تستطع حمل كل المسافة التي قطعتها لأجلها. انتظرت لكن الصمت سبق أي كلمةٍ أخرى. وفي تلك اللحظة، دخل سامي. نهض أبي من مكانه بسرعة. صافحه بحرارة. ثم قال وهو يبتسم كنُت أعرف أنك لن تخذلني." تبادلوا الحديث والضحكات.أما شهادتي فبقيت على الطاولة. وحيدة كأنها تخص شخصًا غريبًا. جلسُت بصمت. أحاول أن أقنع نفسي أن الأمر لا يستحق لكن أمي التفتت إلي فجأة. نظرت إلى الشهادة، ثم قالت دون أن تقصد أن تؤذيني "لو أنك اجتهدت في الأشياء المهمة كما يجتهد سامي لكان مستقبلك مطمئنًا أكثر"رفعُت رأسي إليها. أردُت أن أقول:"وهل كان هذا الإنجاز غير مهم؟" لكن الكلمات بقيت حبيسة صدري رد أبي بهدوء، وهو ما يزال ينظر إلى سامي: "دعيه." ثم التفت إلي أخيرًا. وقال: "يا آدم المسابقات والجوائز جميلة توقف قليلًا. لكنها لا تصنع رجلًا يُعتمد عليه." شعرُت بشيءٍ يهبط في صدري ولم ينتهِ الأمر. نظر إلي مرّة أخرى وأضاف انظر إلى أخيك. أشار إلى سامي. "هذا هو الابن الذي أستطيع أن أطمئن على اسمي بعدي." ساد الصمت. أما أنا فلم أعد أسمع شيئًا. كانت الجملة تدور في رأسي وحدها. "هذا هو الابن..." إذًا ماذا أكون أنا؟ هل أنا ابٌن أيضا؟ أم مجرد محاولةٍ لم تكتمل؟ وقفُت بهدوء. أخذُت شهادتي من على الطاولة. ولاحظُت أن طرفها قد انثنى تحت فنجان القهوة حدقُت في الأثر الصغير. ثم ابتسمت.ابتسامةً لم أعرفها لم أعد أميز بين ما كنُت أسمعه وما كنُت أتخيله. كانت الأصوات تأتي متقطعة، كأنها تعبر ماءً عميقًا قبل أن تصل إلي. "آدم..." "أحضروا ماءً بسرعة..." اتصلوا بالطبيب..."كنُت أريد أن أفتح عيني. لكن جفني كانا أثقل من أن يستجيبا. كل ما استطعُت فعله... أن أستسلم لذلك الظلام الذي ابتلعني ببطء. حين فتحُت عيني للحظة. سمعُت صوت ريم، وكان يرتجف على غير عادتها. "آدم... أرجوك، انظر إلي." ولأول مرة منذ سنوات... سمعُت في صوتها خوفًا حقيقيًا .خوفًا لم أعرف إن كان علي أن أفرح به أم أحزن لأنه جاء متأخرًا. ركعت ليان إلى

جانبي. لم تكن تعرفني إلا منذ دقائق ومع ذلك، كانت أكثر هدوءًا من الجميع. وضعت يدها برفق على معصمي لتطمئن إلى نبضي، ثم قالت بصوت منخفض: "تنفسه منتظم... لكنه مرهق جدًا." كان صوتها هادئًا على نحوٍ غريب. لا يحمل هلعًا... ولا أوامر. بل ذلك الهدوء الذي يجعل الإنسان يشعر أن أحدًا يمسك بالفوضى حتى لا تتسع. رفعتُ بصري إليها بصعوبة. لم أر ملامحها كاملة. رأيت فقط خصلاتٍ من شعرها البني حركتها الريح، وعينين ثابتتين لا تبحثان عن تفسيرٍ لما حدث، بل عن طريقةٍ لتخفيفه ثم عاد كل شيء معتمًا من جديد وصل الطبيب بعد وقتٍ لم أعرف طوله. كنتُ أسمع صوته أكثر مما أراه ضغط نفسي .قلة نوم .إجهاد شديد..." كلماتٌ قصيرة. باردة. مرتبة. بدت لي كأنها تتحدث عن شخصٍ آخر فالذي كان يتكسر داخلي لم يكن الضغط. ولا التعب. كان شيءً لا تملكه السماعات الطبية، ولا تعرف له الأدوية اسمًا. وقفتُ على حافة الوعي أسمع أبي يسأل الطبيب: "إذن لا يوجد شيء خطير؟ أجابه الطبيب: "يحتاج إلى الراحة، والاهتمام، وتقليل الضغوط." ساد صمتٌ قصير. ثم قال أبي بهدوء:"حسنًا". كلمةٌ واحدة. لم يسأل لماذا وصل ابنه إلى هذه الحال. لم يسأل عمّا كان يحمله في قلبه. اكتفى بأن عرف أن الأمر ليس خطرًا على الجسد أما الروح فلم يسأل عنها أحد. ساعدت ريم الطبيب في إدخالي إلى غرفتي. كانت خطواتها بطيئة، كأنها تخشى أن تؤلمني حتى وهي تسندني. أما ليان فوقفت عند باب الغرفة لم تدخل. واكتفت بالنظر إلى المكان بصمت. تجولت عيناها بين الجدران المكتب المرتب. الدفاتر المكدسة .لوحات الرسم التي تراكم عليها الغبار. والنافذة المطلة على شجرة الرمان. لم تقل شيئًا. لكن ملامحها تغيرت قليلًا. وكأنها أدركت أن الغرف تشبه أصحابها وهذه الغرفة كانت تصرخ بالصمت. بعد دقائق غادرت ريم ثم خرجت ليان بهدوء، وأغلقت الباب خلفها.وبقيت الغرفة ساكنة. لا يُسمع فيها إلا صوت الساعة القديمة. كل تكةٍ منها كانت تبدو كأنها تعّد شيئًا ليس الوقت. بل ما تبقى من قدرتي على الاحتمال.ثم غبتُ عن الوعي مرّة أخرى. ولم أفتح عيني بعدها إلا على سقف غرفتي الأبيض، وصوت أمي يتسلل من خلف الباب وهي تقول: "الطبيب قال إنه إرهاق فقط... نعم... لا داعي للقلق." كان السقف فوقي أبيَض، بارًدا، وخاليًا من أي شيء يستحق التأمل.احتجتُ بضع ثوانٍ لأدرك أنني في غرفتي. كانت رائحة الدواء تملأ المكان.بقيتُ أحدق في السقف طويلًا. وسألت نفسي: هل يمكن للطبيب أن يسمع صوت قلبٍ يتكسر؟ وهل يوجد في هذا العالم جهاز يستطيع أن يقيس وزن الخيبة؟ أم أن الأرواح، حين تنهار، تُترك دائمًا بلا تشخيص؟ بعد دقائق،سُمعت خطواتٌ تقترب. توقف صاحبها عند باب الغرفة. كان أبي. لم يدخل بقي واقفًا عند العتبة، كأن المسافة بيني وبينه لم تكن عدة خطوات بل عمرًا كاملًا. نظر إليّ نظرةً سريعة، ثم قال بهدوء: "احمد الله أنك بخير" وأغلق الباب بقيتُ أحدق في الباب بعد أن اختفى. غريب كنتُ أظن أن الأبواب تُغلق لتمنع الغرباء من الدخول لا لتمنع الآباء من الاقتراب. أغمضتُ عيني وللمرة الأولى لم أكن أريد أن يفتح الباب مرّة أخرى. لأنني أدركت أن بعض الأبواب، حتى لو فُتحت فإن أصحابها لا يدخلون مرت الأيام بعدها بطيئة، حتى بدا الزمن نفسه متعبًا. كنتُ أستيقظ كل صباح، أرتدي ملابسي، وأغادر إلى المدرسة. أجيب حين يُنادى اسمي. وأبتسم عندما تفرض ابتسامة. وأعود إلى البيت في الموعد نفسه. كنتُ أفعل كل شيء كما ينبغي إلا أنني لم أعد أشعر أنني موجود. أحيانًا كنتُ أقف أمام المرآة دقائق طويلة. لا أصلح شعري. ولا أرتب ياقة قميصي. كنتُ فقط أحدق في وجهي، وأسأل بصمت: هذا الغريب

أنا؟ هل يتغير الإنسان فجأة؟ أم أنه يتغير كل يوم قليلًا حتى يأتي يومٌ لا يتعرف فيه إلى نفسه؟ كانت ريم تدخل غرفتي كل مساء. تجلس عند طرف السرير، وتكتفي بالصمت. كأنها أدركت متأخرة، أن الصمت الذي فرضه هذا البيت عليّ سنواتٍ طويلة لم يعد يُحتمل. في إحدى الليالي رفعت رأسها نحوي وقالت بصوتٍ مكسور: "أنت لم تعد تشبه آدم الذي أعرفه." نظرتُ إليها طويلًا. ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت: "وأنا لم أعد أعرفه أيضًا." ارتجفت شفتاها، لكنها لم تتكلم. نهضت واتجهت نحو النافذة، ثم همست: "شجرة الرمان" التفتُّ إليها. "ماذا بها؟" أشارت إلى الحديقة وقالت: "لم تزهر هذا العام." اقتربت من النافذة ببطء. كانت أغصانها ساكنة. وأوراقها أقل من كل عام.ظللتُ أحدق فيها طويلًا، ثم قلت بصوتٍ خافت: "بعض الأشياء تتعب من الإزهار عندما لا يقدر أحدٌ جمال أزهارها." لم تنظر ريم إلى الشجرة. كانت تنظر إليّ وأظنها، للمرة الأولى فهمت أنني لم أكن أتحدث عنها. وقبل أن تغادر، توقفت عند الباب. استدارت نحوي، وكانت عيناها حمراوين من أثر دموعٍ أرهقها إخفاؤها. قالت بصوتٍ مرتجف: "لا تفعل هذا بي مرّة أخرى." ثم خرجت. بقيتُ أحدق في الباب بعد أن أغلقته خلفها. ظننتُ أنها كانت تتحدث عن الإغماء. لكنني فهمت بعد ذلك أنها لم تكن تقصد ذلك أبَدا. كانت تقصد كل تلك السنوات التي رأتني فيها أختفي ببطء وأنا أبتسم، كي لا يلاحظ أحدٌ أنني أنهار بعد ذلك، أصبحت ريم تزورني كل مساء تقريبًا. ولم تعد تأتي وحدها. كانت ليان ترافقها أحيانًا. في البداية مرة كل أسبوعين. ثم صارت الزيارات أقرب، حتى أصبح حضورها جزءًا هادئًا من مساءاتي. لم تكن كثيرة الكلام. ولم تحاول يومًا أن تقتحم صمتي. والغريب أنها لم تسألني السؤال الذي كنت أكرهه أكثر من أي شيء: "كيف حالك؟" ربما لأنها كانت تعرف أن بعض الأرواح، حين تتعب، لا تعود تملك جوابًا لهذا السؤال. كانت تسأل بدلًا من ذلك: "هل قرأت كتابًا هذا الأسبوع؟""ما آخر بيت شعر حفظته؟" "ما اسم أول أغنية أحببتها في حياتك؟" أسئلة بسيطة لكنها كانت تعيد إليّ شيئًا كنت أظنه مات. كانت تذكرني أنني لم أكن مجرد شخصٍ يحمل وجعًا بل إنسانًا له ذاكرة وذوق وأشياء أحبها . وفي إحدى الأمسيات، خرجنا إلى الحديقة. جلسنا تحت شجرة الرمان.كانت قد فقدت معظم أوراقها.بدت أغصانها عارية، كأنها أنهكتها الفصول، لكنها ما زالت واقفة طال الصمت بيننا. ثم قالت ليان وهي تنظر إلى الشجرة: "أتعرف؟ الأشجار لا تموت في الشتاء." التفتُّ إليها. فأكملت بهدوء:"هي فقط تتوقف عن التظاهر بأنها بخير" ظللتُ أحدق في الأغصان اليابسة. ثم سألتها:"وكيف تعرف الشجرة متى تعود؟ ابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت:"هي لا تعرف." سكتت لحظة، ثم تابعت: "هي فقط تثق أن جذورها ما زالت هناك حتى لو لم تر فوق الأرض أي دليل."ساد الصمت.لكن هذه المرة لم يكن صمتًا يشبه الفراغ. كان صمتًا يشبه نافذةً فُتحت في غرفةٍ ظلت مغلقة سنوات. لم أخبرها أنني كنت أبحث عن جواب هذا السؤال منذ زمنٍ طويل. ولم أخبرها أنني لم أعد واثقًا أصلًا من أن جذوري ما زالت قادرة على حمل شيء. اكتفيت بالنظر إلى شجرة الرمان. وللمرة الأولى منذ سنوات لم أشعر أنني الوحيد الذي يفهم لغة الأشجار. بدأت أكتب أكثر بعد ذلك ليس لأن الألم خفّ بل لأنني،للمرة الأولى شعرتُ أن كلماتي لن تحاكم قبل أن تُفهم. وذات مساء، جمعتُ شجاعتي وأعطيتُ ليان دفتري. ظللتُ ممسكًا بطرفه لحظةً قبل أن أتركه، كأنني لم أكن أقدم لها أوراقًا بل أقدم لها أكثر الأجزاء هشاشةً مني أخذته بهدوء. قرأت صفحتين فقط. ثم أغلقته برفق، وأعادته إليّ.نظرتُ إليها باستغراب. ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:"لن أقرأ الباقي الآن."

سألتها: "لماذا؟"قالت وهي تربت على الغلاف بأطراف أصابعها:"لأن بعض الكلمات لا تُقرأ دفعَة واحدة هي تُرافق صاحبها سنوات، فلا يليق بقارئها أن يعبرها في دقائق." صمتُ ثم أضافت: "وأوجاعك تستحق أن يُصغى إليها لا أن تُستهلك." في تلك اللحظة أدركت أن هناك فرقًا شاسعًا بين من يقرأ كلماتك ومن يُنصت إلى ما بين سطورها. وللمرة الأولى في حياتي لم أشعر أن أحدًا احترم كتاباتي فقط بل احترم الجروح التي كتبتها.مرت الأسابيع وأصبحت زيارة ليان أمرًا اعتادت عليه غرفتي، كما اعتادت أشعة الشمس أن تتسلل من نافذتها كل صباح. لم تكن تتحدث كثيرًا و أنا أيضًا لكن الغريب أن الصمت بيننا لم يكن يشبه الصمت الذي عرفته في البيت.هناك كان الصمت عقوبة. أما معها فكان مساحَة أستريح فيها .في أحد الأيام،جاءت تحمل كتابًا قديمًا ناولَتنيه دون مقدمات كان العنوان رسالة إلى الوالد و من الأسفل فرانز كافكا.قالت:"لا أريدك أن تقرأه كله."نظرت إليها باستغراب. ابتسمت وقالت: "أريدك فقط أن تجد جملة تشعر أنها تشبهك أخذت الكتاب. قلبت صفحاته ببطء و توقفت عند العديد من الجمل .أغلقت الكتاب وبقيت أحدق في الغلاف طويلًا. همسُت: "كأن الكاتب كان يعرفني."هزت رأسها بهدوء وقالت:"لا... لكنه كان يعرف الألم." كانت تحاول أن تعيدني إلى الأشياء التي أحببتها يومًا.مرةً أحضرت لي أوراق رسم جديدة وضعتها على المكتب ثم خرجت إلى الحديقة . دون أن تطلب مني أن أرسم.جلسُت أمام الورقة البيضاء ساعَة كاملة ثم أعدُت الأقلام إلى العلبة كما كانت. حين عادت، لم تسألني لماذا لم أرسم. اكتفت بالنظر إلى الورقة البيضاء وقالت بابتسامة هادئة: "لا بأس...حتى البياض يحتاج وقتًا قبل أن يتحول إلى لوحة."لكن الحقيقة أنني لم أكن أحتاج إلى وقت. كنُت أحتاج إلى قلبٍ ما زال يؤمن أن الغد يستحق الانتظار.وكنت أفقد ذلك القلب شيئًا فشيئًا. صرُت أنسى مواعيدي. أنام بعد الفجر. وأستيقظ متعبًا،كأن النوم صار عملًا شاقًا. ملابسي بقيت على الكرسي أيامًا. تراكم عليها الغبار. حتى دفتري ذلك الذي كنت أخبئ فيه كل ما أعجز عن قوله ظل مغلقًا أسبوعين كاملين ولأول مرة منذ بدأت الكتابة لم أجد كلمَة واحدة تستحق أن تُكتب. وسألت نفسي: هل يجف الحبر... أم أن الذي يجف هو الإنسان؟ في صباحٍ بارد، وقفت أمام المرآة. حدقت في وجهي طويلًا كانت الهالات السوداء تحت عيني أعمق من المعتاد. ولحيتي بدأت تنبت بلا اهتمام. رفعت يدي ولم أعرف الشخص الذي أمامي. فسألت انعكاسي:في أي لحظةٍ توقفنا عن أن نكون الشخص نفسه؟ وهل يختفي الإنسان فجأة... أم يتسرب من نفسه ببطء، حتى لا يبقى منه إلا الاسم؟ في ذلك المساء، خرجت ليان إلى الحديقة. توقفت أمام شجرة الرمان. ثم نادتني. خرجت إليها ببطء كانت تحمل بيدها إبريق ماء.ناولته لي وقالت:"اسقها."نظرت إلى الشجرة ثم إلى الإبريق وقلت بهدوء: "لن يفيد."سألت: "ولماذا؟ أجبت:"لأن الماء لا يعيد الحياة إلى شيءٍ تعب من الانتظار" صمتت لحظة ثم قالت: "ربما." رفعت الإبريق من يدي، وسقت جذور الشجرة بنفسها. ثم نظرت إلي وقالت: "أنا لا أسقيها لأنني متأكدة أنها ستُزهر.أسقيها لأنني لا أريد أن يكون عطشها هو السبب إن ماتت." لم أعرف لماذا لكن هذه الجملة بقيت تدور في رأسي طوال تلك الليلة. ولأول مرة منذ أشهر لم أنظر إلى الشجرة على أنها تشبهني فقط.بل شعرت أن هناك من يحاول أن يسقيها أيضًا. حين خرج آدم من البيت في صباح اليوم التالي،شعر أن الهواء أثقل من المعتاد، لم يكن البرد هو السبب، بل ذلك الإحساس الغامض الذي يسبق الأشياء الكبيرة، كأن الروح تعرف ما سيحدث قبل العقل بأيام. سار في الطريق المعتاد نحو المدرسة، وكان

يراقب الناس بصمت طفل يضحك، رجل يحمل الخبز، امرأة تجر ابنها الصغير، فسأل نفسه: هل يعرف هؤلاء جميعًا إلى أين يمضون؟ أم أنهم مثلي، يتحركون لأن الوقوف أصبح أصعب من السير؟ حين وصل إلى البوابة وجد ليان تنتظره كعادتها،كانت واقفة بابتسامتها الهادئة التي لا تخفي شيئًا. أثناء الاستراحة جلس مع ياسين في الساحة وكانت ليان تجلس على المقعد المقابل لهما، قال آدم وهو يلتفت إليها: "ما رأيك فيما ؟ نظر ياسين إليه باستغراب، ثم نظر إلى المقعد المقابل وسأل:"تقصد من؟" ضحك آدم وقال: "ليان قطب ياسين حاجبيه وقال: "لا أحد يجلس هناك."شعر آدم بوخزة صغيرة في صدره، لكنه ابتسم وقال في نفسه إن ياسين لم ينتبه إليها، فليس كل الناس يلاحظون الوجوه الهادئة. مر الحديث سريعًا، لكن السؤال بقي واقفًا داخله. بعد انتهاء الدوام،خرج مع ليان نحو الحديقة، كانت تتحدث عن الأشجار كما اعتادت وقالت وهي تنظر إلى شجرة الرمان: "الأشجار لا تخاف من الشتاء، لأنها تؤمن أن الربيع يتذكر طريقه دائما." ابتسم آدم وقال: "أما الإنسان، فيكفي أن ينسى طريق قلبه مرة واحدة ليقضي عمره كله يبحث عنه." هزت رأسها بصمت، ثم جلسا تحت الشجرة. بعد دقائق جاءت ريم، ألقت السلام على آدم وجلست إلى جانبه،انتظر أن تلتفت إلى ليان لكنها لم تفعل، فقال لها: "ألن تسلمي عليها؟" نظرت ريم إليه باستغراب وقالت: "على من؟" ضحك بخفة وهو يشير بيده إلى المكان الذي تجلس فيه ليان لكن ريم تبعت حركة يده، ثم أعادت النظر إليه وقالت بهدوء: "آدم لا يوجد أحد هناك." لم يشعر بالخوف،بل شعر بشيء أشد غرابة، شعر أن العالم كله أخطأ في ملاحظة إنسانة يعرف أنها موجودة التفت إلى ليان،فوجدها ما تزال تبتسم، وكأن شيئًا لم يحدث، فقال في نفسه: ربما الناس لا يرون الأشياء التي يحتاجها غيرهم. وفي تلك الليلة، فتح دفتره وكتب: "الغريب ليس أن يراك العالم وحدك الغريب أن يبدأ العالم كله برؤية فراغ في المكان الذي ترى فيه أنت إنسانا كاملًا. تحول السؤال إلى باب والباب إلى هاوية، والهاوية إلى الحقيقة التي كنا نهرب منها منذ البداية."مرت الأيام، لكن السؤال لم يمر معها. كان يكبر بصمت، كما تكبر الشقوق داخل الجدران؛ لا يسمعها أحد، لكنها في يوم ما تصبح أكبر من أن تُخفى. حاول آدم أن يقنع نفسه بأن ما حدث مجرد سوء فهم، وأن ياسين لم ينتبه إلى ليان، وأن ريم كانت شاردة الذهن، لكن الغريب أن التبريرات كانت تريحه لدقائق فقط، ثم يعود القلق ليجلس في المكان نفسه داخل صدره. أصبح يراقب الأشياء أكثر مما يعيشها. كان يراقب ليان وهي تمشي في ممرات المدرسة، ثم يراقب الطلاب الذين يعبرون بجانبها دون أن يفسحوا لها الطريق، وكأنها هواء لا يُرى. وفي إحدى الحصص، دخل المعلم الصف، ألقى التحية، ثم أخذ يوزع الأوراق على الطلاب. مر بجانب ليان تمامًا، لكنه لم يضع ورقة على طاولتها، ولم ينظر إليها أصلًا. شعر آدم بانقباض في قلبه،رفع يده وقال:"أستاذ نسيت ورقة ليان." التفت المعلم إليه، ثم نظر إلى الطاولة الفارغة أمامه وقال بابتسامة متعجبة: "أي ليان يا آدم؟ هذه الطاولة لم يجلس عليها أحد منذ بداية الفصل."ضحك بعض الطلاب، بينما بقي آدم صامتًا، لم يغضب من ضحكاتهم، بل خاف من الهدوء الذي سبقها.التفت إلى ليان، فوجدها تنظر إليه بعينيها الهادئتين، ثم قالت بصوت منخفض: "لا تهتم ليس كل ما يراه القلب تستطيع العيون أن تراه." كانت كلماتها تطمئنه، لكنها في الوقت نفسه كانت تزيد خوفه، لأن الإنسان لا يحتاج إلى الطمأنينة إلا عندما يشعر أن شيئًا ما ينهار. بعد انتهاء الدوام، خرج معها كعادته،ولم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالها: "هل تعرفين ياسين؟" ابتسمت وقالت:

"أعرف أنك تعرفه." سألها مرة أخرى: "وهل تعرفين ريم؟" سكتت قليًلا، ثم قالت: "بعض العلاقات يكفي أن يعيشها شخص واحد."لم يفهم جوابها، لكنه شعر أنه أخطر من السؤال نفسه. وفي طريق العودة، مّرا أمام محل صغير،كانت واجهته الزجاجية تعكس المارة. رفع آدم رأسه مصادفة لينظر إلى انعكاسهما،فرأى نفسه يسير وحده. توقف فجأة، واتسعت عيناه، ثم عاد ينظر مباشرة إلى ليان، كانت تقف أمامه كما هي،هادئة، تبتسم، لكن الزجاج خلفها لم يعكس سوى الشارع الفارغ. اقترب أكثر من الواجهة، مسح الزجاج بيده، وظن أنه متسخ، ثم أعاد النظر. لم يتغير شيء. بقي هو وحده في الانعكاس. شعر بأن أنفاسه أصبحت ثقيلة، كأن الهواء لم يعد يعرف طريقه إلى رئتيه. التفت بسرعة نحو ليان، فوجدها تنظر إليه بحزن لم يره في عينيها من قبل، وقالت بصوت خافت: "ليس كل ما يختفي يكون قد رحل وأحيانًا يكون الذي نبحث عنه أقرب إلينا من أنفسنا." لم يسألها ماذا تقصد،لأنه،ولأول مرة منذ سنوات، لم يكن يخاف من الجواب بل أصبح يخاف من الأسئلة نفسها في تلك الليلة، لم يستطع آدم النوم. بقيت صورة واجهة الزجاج تطارده، كلما أغلق عينيه رأى نفسه يسير وحده، وكلما فتحهما وجد سؤالًا جديًدا ينتظره. مع اقتراب الفجر، نهض من سريره، فتح درج مكتبه،وأخرج دفتًرا قديًما كان يكتب فيه كل ما يعجز عن قوله للناس. أخذ يقلب صفحاته ببطء،حتى توقفت عيناه عند أول يوم كتب فيه عن ليان. ابتسم ابتسامة صغيرة، ثم بدأ يقرأ. كان يقرأ وكأنه يقرأ حياة شخص آخر. فجأة، توقف عند جملة أربكته: "جلست اليوم وحدي تحت شجرة الرمان، وتمنيت لو أجد إنسانًا يفهمني." بقي يحدق في السطر طويًلا. أغلق الصفحة بسرعة، وقال في نفسه:لا... في ذلك اليوم التقيت ليان. أعاد القراءة مرة أخرى. كانت الجملة كما هي. قلب الصفحة التالية. وجدها مكتوبة بعد أسبوع: "ما زلت أجلس وحدي كل مساء، لكنني بدأت أسمع صوًتا يواسيني." شعر بقشعريرة تسري في جسده. همس بصوت مرتجف: "صوت؟... لماذا لم أكتب اسمها؟" قلب صفحة أخرى، ثم أخرى، حتى وصل إلى الأيام التي كان يخرج فيها معها باستمرار. لم يجد اسم ليان مرة واحدة.لم يجد سوى كلمات مثل: "ذلك الصوت""ذلك الحضور" "الفتاة التي لا يعرفها أحد"أحس أن قلبه بدأ يخفق بعنف، وكأن شيًئا داخله يحاول الهرب. في الصباح، حمل الدفتر وذهب مباشرة إلى ريم.جلس أمامها بصمت، ثم فتح إحدى الصفحات وقال:"هل تتذكرين هذا اليوم؟"أخذت الدفتر وقرأت السطور، ثم رفعت رأسها إليه. قال بسرعة: "في هذا اليوم كنت أنا وأنت وليان تحت شجرة الرمان، أليس كذلك؟" سكتت ريم طويًلا، حتى بدأت عيناها تمتلئان بالدموع. قالت بصوت مكسور:"يا آدم في ذلك اليوم كنت وحدك." شعر أن الكلمات لم تدخل أذنه، بل سقطت مباشرة في قلبه ابتسم ابتسامة مرتبكة وقال: "لا أنت نسيت."هزت رأسها وهي تبكي:"كنت أجلس بعيًدا عنك كنت أراك تتحدث وتبتسم لكن لم يكن هناك أحد أمامك. كنت أظن أنك تكتب حوارًا لرواية جديدة ولم أملك الشجاعة لأسألك." سقط الدفتر من يد آدم على الأرض.لأول مرة لم يحاول أن يرفعه ولأول مرة منذ ظهور ليان بدأ يخاف من احتمالٍ واحد فقط أن تكون كل الكلمات التي أنقذته قد خرجت من قلبه هو،لا من إنسانة جاءت لتنقذه بقي آدم واقًفا في مكانه، بينما كانت ريم تمسح دموعها بصعوبة. أراد أن يصرخ في وجهها، أن يتهمها بالكذب، أن يقنع نفسه بأن الجميع أخطأ إلا هو، لكنه لم يستطع. كانت الحقيقة، للمرة الأولى، تبدو أثقل من أن ُترفض،وأخف من أن ُتصدق انحنى ببطء التقط دفتره من الأرض، ثم أغلقه دون أن ينظر إلى صفحاته.خرج من

البيت دون أن يقول كلمة وكانت خطواته تعرف طريقًا واحدًا فقط شجرة الرمان وصل مع غروب الشمس. كانت الحديقة هادئة على غير عادتها.جلس في المكان الذي كانت ليان تجلس فيه دائمًا، وظل يحدق في الفراغ المقابل له. مرت دقائق طويلة قبل أن يسمع صوتها جئت مبكرًا اليوم."رفع رأسه بسرعة. كانت هناك. تبتسم كما اعتادت شعر براحة قصيرة، راحة تشبه الماء الذي يشربه العطشان وهو لا يعلم أنه سراب. قال بصوت مرتجف: "قالوا إنك غير موجودة." ابتسمت بهدوء. ومن قال إن الناس يرون كل شيء؟" اقترب منها قليلًا، وحدق في عينيها طويلًا. قولي لي الحقيقة. ساد الصمت. حتى الريح بدت وكأنها توقفت لتسمع جوابها قالت أخيرًا:"ولماذا تريد الحقيقة؟" أجاب بصوت مكسور: "لأنني تعبت من الشك. ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: "أحيانًا يكون الشك أكثر رحمة من الحقيقة لم يفهم كلماتها، لكنه شعر أنها تخفي شيئًا أكبر من كل الأسئلة التي حملها طوال حياته في تلك اللحظة، دخلت ريم الحديقة تبحث عنه وقفت على بعد أمتار. كانت ترى آدم جالسًا وحده يرفع رأسه ويهز رأسه ويتحدث مع الهواء شعرت بقلبها ينقبض.اقتربت ببطء وهي تخشى أن تقطع عليه شيئًا لا تراه وحين أصبحت خلفه مباشرة، قالت بصوت مرتجف "آدم التفت إليها ثم عاد ينظر إلى المكان الذي تجلس فيه ليان كان المقعد فارغًا تجمدت أنفاسه نظر يمينًا ثم يسارًا لم يجدها. وقف بسرعة دار حول الشجرة بحث خلف الجذع نظر إلى الطريق لم يكن هناك أحد همس بصوت يكاد لا يُسمع ليان لم يجبه سوى حفيف الأوراق اليابسة.قالت ريم وهي تقترب منه مع من كنت تتحدث؟" ظل صامتًا لم يرد لأنه للمرة الأولى لم يكن يعرف الجواب عاد ببصره إلى المقعد الفارغ تذكر شيئًا صغيرًا طوال الأشهر الماضية لم يرها تغضب ولم يرها تمرض ولم يرها تنادي أحدًا باسمه ولم يسمع أحدًا يناديها كانت تظهر دائمًا حين يشعر أنه سينهار وتختفي كلما جاء شخص آخر شعر بقشعريرة باردة تسري في جسده وسأل نفسه سؤالًا أخافه أكثر من أي شيء عرفه في حياته هل كانت ليان تأتي كلما احتاجها قلبي أم أن قلبي هو الذي كان يصنعها كلما لم يجد أحدًا؟ رفع رأسه نحو شجرة الرمان كانت ورقة صفراء تنفصل ببطء عن أحد الأغصان ظل يتابع سقوطها حتى استقرت أمام قدميه انحنى والتقطها ثم ابتسم ابتسامة باهتة وتذكر جملة كتبها منذ سنوات بعض الأوراق لا تسقط لأنها ماتت بل لأن الشجرة لم تعد قادرة على حملها حينها تسلل إلى قلبه خوف لم يشعر به من قبل لم يعد يخاف أن يفقد ليان بل بدأ يخاف أن يكتشف أنه لم يلتقها يومًا مرّت سنوات. سنوات لم تُشِف كل شيء... لكنها علّمتني أن بعض الجروح لا تحتاج أن تختفي،يكفي أن تتوقف عن قيادة حياتك تعلمُت أن أتعايش مع الفراغ. أن أنام دون أن أخاف من الصباح وأن أنظر إلى المرآة دون أن أسألها كل مرة: "من أنت؟" لم أجد جوابًا لكل أسئلتي بل اكتشفْت أن الحياة لا تمنحنا دائمًا أجوبة أحيانًا تمنحنا قدرًة على التوقف عن مطاردتها .كبرُت وتغيّرت أشياء كثيرة رحل أبي بعد أعوام، تاركًا خلفه كلماٍت لم تُقل، واعتذاراٍت لم تولد أما أمي، فقد أصبحت أكثر هدوًءا، لكنها كانت تنظر إلي أحيانًا بتلك النظرة التي لا أعرف إن كانت ندمًا أم حنينًا أم محاولًة متأخرًة لفهم اٍبن أضاعته وهي تظن أنها تربيه وريم بقيت كما كانت دائمًا. اليد التي لم تستطع إنقاذي من السقوط لكنها رفضت أن تتركني أسقط وحدي. أما أنا...فكتبت كتبت كثيرًا. ليس لأروي حكايتي بل لأنني كنت أعرف أن هناك شخصًا آخر في مكاٍن ما،يجلس الآن في غرفته، ويظن أنه الوحيد الذي يشعر بهذا الألم.وأردُت أن أخبره أنه ليس وحده وفي مساٍء هادئ من مساءات

الخريف عدتُ إلى البيت القديم. كل شيء بدا أصغر مما تركته الجدران.النوافذ. وحتى الذكريات خرجتُ إلى الحديقة. كانت شجرة الرمان ما تزال في مكانها. لكنها لم تعد تشبه تلك الشجرة التي عرفتها. كانت ممتلئة بالأوراق.وأغصانها تنحني من ثقل الثمار اقتربتُ منها ببطء. ومددتُ يدي ألمس جذعها الخشن.ابتسمت وقلتُ بصوتٍ خافت: "ها أنتِ أخيرًا وجدتِ الربيع." جلستُ تحتها. وأغمضتُ عيني.كان الهواء يحمل رائحة التراب بعد المطر. وتلك الرائحة وحدها، كانت كافية لتعيد إليّ سنواتٍ كاملة سنواتٍ من الخوف. والانتظار والأسئلة التي لم تجد جوابًا.تذكرتُ شيئًا قالته لي ليان يومًا:"الأشجار لا تخاف من الشتاء لأنها تؤمن أن الربيع يتذكر طريقه دائمًا. ابتسمتُ دون أن أشعر.وسألتُ نفسي للمرة الأخيرة: هل كانت ليان حقيقةً عشتها أم رحمةً خلقها قلبي حين عجز العالم عن أن يرحمني؟ لم أعرف. وربما لن أعرف أبدًا لكنني، ولأول مرة لم أعد بحاجة إلى معرفة الجواب.وبينما كنتُ غارقًا في صمتي حملت الريح ورقة رمان، وأسقطتها أمام قدمي. وفي اللحظة نفسها سمعتُ صوتًا أعرفه جيدًا. صوتًا هادئًا، دافئًا، لم يتغير رغم مرور السنين قال: "تأخرت اليوم."فتحتُ عيني بسرعة نظرتُ حولي. لم يكن هناك أحد كانت الحديقة ساكنة والشجرة وحدها تتحرك مع الريح.ظللتُ أحدق في المكان طويلًا ثم ابتسمت ابتسامةً لم تكن تشبه أي ابتسامة عرفتها من قبل ورفعتُ رأسي نحو الأغصان، وقلتُ بهدوء: "لا هذه المرة أنا وصلت في الوقت المناسب." ساد الصمت. أغلقتُ عيني مرةً أخرى. وتركتُ الريح تُكمل الحديث نيابةً عن كل الكلمات التي عجزتُ عن قولها. تمت